ثورة العشرين: المسالة الكبرى أم الخدعة الكبرى

بقلم علاء الحصونة

دأبت الحكومات العراقية المتوالية على تمجيد ثورة العشرين و الموقف الوطني الذي وقفه "العراقيون كافة" في مواجهة الاحتلال البريطاني. و قد استعملت تلك الحكومات لغة حماسية عاطفية ملتهبة تعدت الخطاب السياسي إلى المناهج التعليمية لتتربى الأجيال على تمجيد هذا الحدث و لكن بعيدا عن "ديوان الحماسة" هذا هل لنا أن نتأمل بعمق لماذا تبنت تلك الحكومات هذه السياسة و كيف حققت إغراضها من خلالها .

ضباط منظمة "احد" و الثورة

يجمع المختصون في تاريخ العراق الحديث على الدور الذي لعبه ضباط منظمة "احد" في التأليب على الثورة و المناورات السياسية التي تبعتها (انظر قائمة المراجع). منظمة "احد" هي منظمة سرية أسسها بعض الضباط السنة العرب في الجيش العثماني إذ لم تسمح الدولة العثمانية المسلمة للشيعة بالوصول إلى مراتب في الجيش والدولة. ومن بين هؤلاء الضباط نوري السعيد و ياسين الهاشمي و مولود مخلص و حكمت سليمان وجعفر العسكري وتوفيق السويدي وقد تحالف هؤلاء الضباط مع أبناء الشريف حسين و سنة بغداد لخلق الدولة العراقية معتمدين على الأغلبية الشيعية دابة للوصول إلى حكم العراق.
واستطاعوا تحت شعار الاستقلال التام أن يستقلوا تماما بحكم الدولة الناشئة و أداروا ظهورهم لرجال الدين الشيعة الذين كانوا حلفائهم بالأمس بل أنهم نفوا بعضهم بتهمة التأمر على العراق مثل الخالصي الذي اصدر الفتوى تلو الفتوى في تأييد الملك ثم في التأليب عليه !

كان الشيعة ، كما هم اليوم، منقسمين إلى عشرات الأقسام وكل حزب بما لديهم فرحون فكان لابد من توحيدهم دون المخاطرة باستمرار هذه الوحدة و ليس الأمر سهلا .

عملت أبواق الدعاية "الشريفية" كما يسميها الانكليز بنشاط على الترويج لفكرة استقلال العراق تحت حكم أمير عربي وصدرت الفتاوى هنا و هناك لدعم هذه

الدعاية و اخذ بعض رجال الدين الشيعة يؤلبون العشائر على الثورة والجهاد ضد "الكفار" دون الأخذ بنظر الاعتبار مصالح الشيعة ودون أي دراية بالسياسة و الأدهى من ذلك و الأمر دون أي برنامج سياسي واضح .

الدعاية لم تتوقف عند هذا الحد بل استغلت انشقاق الشيعة فحرضت بعض رجال الدين الشيعة على التعريض والاستخفاف بالمراجع الذين وقفوا موقفا عقلانيا حكيما و لم يشجعوا الثورة مثل السيد كاظم اليزدي فاتهموا بشتى أنواع التهم ومنها التهمة "الكلاسيكية" و هي عدم الانتماء للعراق. ويذكر مؤرخو هذه الفترة و السياسيين الانكليز إن السنة شاركوا في مراسيم التعزية الحسينية و إن الشيعة شاركوا في المواليد و كانت الخطابات السياسية الملتهبة تلقى في الجوامع و الحسينيات ويحضرها أبناء الطائفتين بل إن المخابرات البريطانية لاحظت إن المظاهرات المطالبة بالاستقلال كانت تردد شعار " لا اله إلا الله محمد رسول الله" فقط وتناسى الشيعة إن علي ولي الله. هذه الوحدة الإسلامية القومية الوطنية استمرت طوال فترة التأليب على الثورة حتى ثار الثوار.

الثورة تبدأ في الرميثة

كما بدا تاريخ الحضارة في سومر فان تاريخ العراق الحديث بدا هناك أيضا بثورة عشائر الفرات الجنوبي و الأوسط. وامتدت الثورة لتشمل مناطق أخرى و مناطق ارتأت أن تتفرج حتى ترى النهاية فتقطف الثمار دون تضحيات. أهدرت دماء و خربت البلاد وبرزت شجاعة البعض وجبن البعض الأخر تماما كما برزت حكمة البعض وتهور البعض الأخر. و بدأت المناورات السياسية.

تقول جرترود بيل المعروفة باسم مس بيل إن الضباط السنة بدؤوا يلمحون إلى إن الثورة هي حركة شيعية و إن مراجع الشيعة هم من ألب الجماهير. و بدا تحالف الضباط مع فيصل و سنة بغداد يثير قضية ولاء المرجعية الشيعية ودورها في الساحة السياسية العراقية. هذا التحالف بدا أيضا يعرض خدماته على الانكليز الذين كانوا مصممين على سحق قوة المرجعية الشيعية في كربلاء و النجف. و جاء الماك المستورد على ظهور الشيعة الذين أعمتهم الشعارات الطنانة و الوطنية الرنانة فعمل على تحجيم الشيعة وبدا الخطوات الأولى لتمزيق الولاء الشيعي و تحويله إلى ولاء متلون بألوان الأحزاب و الحركات السياسية في العراق.

هكذا بدا تاريخ الدولة العراقية التي و صلت بها الصلافة و اللااخلاقية إن ترفع شعار " لا شيعة بعد اليوم" على دباباتها و تسحق ألاف الأبرياء بوحشية فقط لأنهم شيعة علي بن أبي طالب ، عجبا الم يكن علي الخليفة الراشد الرابع على الأقل؟

الدولة العراقية الظالمة نهبت العراق ووزعته على حلفائها ثم خربته. تلك الدولة نشأت أول ما نشأت تحت شعار الاستقلال فلنتذكر هذا.

لماذا تحالف الانكليز مع السنة؟

توقع الانكليز أن الشيعة المضطهدين تحت الحكم العثماني سوف يكونون حلفاء الانكليز خاصة و إن الدولة العثمانية قد حرمتهم الناصب الإدارية بل حتى موتطلبات الحياة الأساسية. حاول الانكليز بصبر أن يستميلوا قلوب الشيعة فبدؤوا مشاريع أروائية في الجنوب العطش و تبرعوا لمشاريع خيرية من ضمنها مبلغ كبير خصصته بريطانيا للأقليات المضطهدة تحت الحكم العثماني حتى أنهم شيدوا أوقاف يعود ريعها للحوزة العلمية في النجف وكربلاء.

فكيف تعاملت القيادة الشيعية مع الانكليز؟ رفض احد المراجع المساعد ة الانكليزية بل و أعطى الانكليز مبلغا لفقراء الهند و كان ليس في العراق فقراء. مرجع أخر رفض مقابلة جرترود بيل لأنها ليست محجبة، في حين إن عبد الرحمن النقيب وهو رجل دين سني استقبلها في بيته عدة مرات. محاولات ارنولد ولسن لإقناع الشيعة إن عراق تحكمه بريطانيا سوف يسمح للجميع بالتمتع بالديمقراطية و حرية العقيدة الدينية انتهت بالفشل إذ أصر الشيعة ببغائية عجيبة على الاستقلال التام أو الموت الزؤام فاستقل السنة بالعراق و ذاق الشيعة الموت الزؤام مرات ومرات خلال تاريخ العراق الحديث.

تمجيد ثورة العشرين

قرانا في كتب التربية الوطنية عن بطولات" العراقيين" في ثورة العشرين، أي عراقيين؟ ثورة العشرين لم تمثل العراقيين: هل ثارت بغداد؟ تكريت؟ بيجي؟ هل كان هناك ثوار أكراد، مسيحيين ، أثوريين، يزيديين ؟ ثورة العشرين هي حماقة

شيعية بحتة دفع الشيعة و يدفعون ثمنها باهظا حتى هذه اللحظة بينما تمتع الآخرون و يتمتعون بثمارها حتى هذه اللحظة. لا عجب إذا إن إخواننا السنة يمجدون هذه الثورة وكأنهم يقولون لنا أعيدوها اليوم مع الأمريكان كما فعلتم بالأمس مع الانكليز.

ما أشبه اليوم بالأمس فرجال دين يتهافتون ويتقافزون من اجل الاستقلال ومرجعية حكيمة تتعرض للهجوم لعدم تهورها و همج رعاع إتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح .

لقد دفعت ثمن مشاركة جدي في ثورة العشرين، ثمنا باهظا، فقرا و تشردا و غربة وألما فمن اجل أولادنا و أحفادنا فلنتعقل، فإنهم أذا استقلوا بالعراق هذه المرة فلن يكون هناك وقت للندم.

المراجع

.1فتح في الشرق الاوسط: جرترولد بيل و خلق العراق الحديث تاليف ليورا لوكيتز. يتضمن الكتاب مراسلات مس بيل وهو من اجمل الكتب التي قراتها اتمنى ان يترجم للغة العربية؟

.2العراق والبحث عن الهوية الوطنية: تاليف ليورا لوكيتز. مرجع مهم في تاريخ العراق و تاريخ ظلم الشيعة لا توجد ترجمة عربية على حد علمي.

.3شيعة العراق: تاليف اسحاق نقاش. سفر في تاريخ الشيعة في الدولة العرافية.

.4تاريخ العراق الحديث. فيبي مار

.5اعمدةالحكمة السبعة . ت. اي لورانس . قصة الثورة العربية ودور لورانس فيها, في الكتاب معلومات عن منظمة احد و ضباطه